

السياسة العسكرية عند الرستميين

(160-296هـ/776-909م)

د. إبراهيم بكير بحاز

جامعة متتوري - قسنطينة

تضاربت آراء الباحثين حول وجود وعدم وجود جيش نظامي للرستميين. وهناك من لم يحسم الأمر مع نفسه بحيث يتردد بين وجود الجيش وعدم وجوده، وإن اتفقوا جميعا على وجود المتطوعة وحشدتهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك، كما اتفقوا أن الرستميين لم يكن لهم جيش لما تقدم أبو عبدالله الشيعي داعية الفاطميين بجحافلهم يدك دول المغرب الإسلامي الواحدة تلو الأخرى¹.

¹ علي يحيى معمر: الإباضية في الجزائر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1395هـ/1979. 50-51. محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة بيروت، 1976م، ص 200-201. فخار إبراهيم: "دور الرستميين في وحدة غرب الشعوب"، مجلة الأصالة عدد: 43/42، مطبعة البعث قسنطينة، 1397هـ/1977م، ص 41. جودت عبدالكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين 89م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992، ص 300. الحريري محمد عيسى: الدولة الرسمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالاندلس (296.160هـ) دار القلم، الكويت، ط3، 1987م ص 120، ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي (من الفتح العربي حتى اليوم). تر. عبد الرحمن بدوي. دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي 1969، ص 150، مصطفى نبيل: "البحث عن الإباضية في الجزائر والواحات والأطراف البعيدة"، مجلة الهلال، يناير 1987م، ص 85. وانظر:

يقول الشيخ علي يحيى معمر "... فالدولة الرستمية هي الدولة الوحيدة في ذلك الحين، التي ليس لها جند قابع في الشكنات ينتظر التعليمات، ويحلم بالمكاسب والغنائم من وراء الحرب والغارات"²، والحقيقة أن هذه النظرة المثالية للدولة الرستمية في مؤسسة جيشها وجوداً أو عدماً، ليست متطابقة مع الواقع التاريخي، لذلك رأيت أن أضع عدة تساؤلات أحاول الإجابة عنها لتتضح لنا بعدها جوانب من تلك المؤسسة، ونقرر بعدها ما إذا كان للرستميين جيش منظم أم لا .

هل كان قيام الدولة الرستمية بحد السيف، أم كان تطلعا من شعوب المغرب وخاصة البربر منهم إلى الاستقلال ؟

ما هي فلسفة الرستميين أو لنقل الإباضية في الحروب خاصة ما تعلق منها بحروب أهل القبلة ؟

هل كان للرستميين طموح في التوسع على حساب دول الجيران ؟
هل كان الرستميون يفكرون في الجهاد لنشر دعوة الإسلام خارج بلاد المغرب ؟
أستلة كبيرة ولا شك، نحاول الإجابة عنها بقدر المادة المتوفرة لدينا، فمن الواضح، كما يقول الدكتور إبراهيم بيضون، أن أي نظام يشاد بالسيف، لابد أن يحميه السلاح نفسه أو كان عرضة للانهايار³، والدولة الرستمية لم تقم بحد

Cheikh Bekri : "Le kharijisme Berbère, quelques aspects du royaume Rustumide", in Annales de l'institut d'études orientales, (A.I.E.O), Université d'Alger, T. XV, Alger, 1957.p 76

André Nègre : " la fin de l'Etat rustamide " , Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb , Alger ,juillet 1969, p 20- 21

² علي معمر : الإباضية في الجزائر ، المرجع السابق ، ص 50 ، أما الدكتور محمود إسماعيل فيعزو عدم وجود الجيش إلى <<انشغال الأئمة بالمسائل العلمية والفقهية وميلهم

للمسالمة وزهدهم في إثارة الحروب >> انظر الخوارج ، المرجع السابق، ص 200- 201

³ ويضيف الدكتور بيضون قائلاً بأن هذه الحقيقة كانت نقطة الضعف الرئيسية في دولة معاوية بن أبي سفيان ، فنظامه قام بالسيف، فلا بد له من السيف وقد أدرك معاوية دور القوة

السيف، وإنما جاءت نتيجة تطلع البربر إلى الاستقلال عن المشرق، ذلك الاستقلال الذي كانوا يطمحون إليه منذ أواخر العهد البيزنطي؛ فالدولة الرسمية ليست مثل الدولة الأموية مثلاً التي قانتت طويلاً من أجل إقامة هذه الدولة، وظل السيف أهم مقوم لبقاء سلطة الأمويين؛ في حين كان التطلع لإقامة العدل والاستقلال عن المشرق وإقامة دولة الإباضية أهم مقومات وركائز الدولة الرسمية عند قيامها. وقد قامت من عدم بهروب إمامها الأول من أفريقية إلى منطقة تيهرت تلاحقه جحافل محمد بن الأشعث الخراعي وتحاصره بدون جدوى في جبل سوفجج، ولما رُفع الحصار، كان ذلك إيذاناً بالانتصار رغم عدم وقوع القتال، وإيذاناً بقرب قيام الدولة وإعلانها وذلك بعد أن تقاطرت على منطقة تيهرت وفود الإباضية من كل مكان يريدون إعلان الإمامة⁴.

إن الدولة الرسمية بحاجة إلى القوة المذهبية والوحدة البربرية لاستمرار وجودها، ولا يتأتى لها ذلك إلا باتباع سياسة العدل المطلق الذي يتطلع إليه البربر دوماً، وما أصعب توفير العدل المطلق، ثم ما أصعب سياسة العنصر البربري وانقياده⁵.

أما عن فلسفة الرستميين في الحروب، وهي نابعة من الفكر الإباضي، فإن هذه المدرسة الفقهية، ربما هي أحرص المدارس محافظة وحماية لدماء أهل القبلة، دماء المسلمين وأموالهم ولو كانوا محاربين لها.

المسلحة واستوعبها كأداة ضرورية لحماية هذه الدولة. انظر إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م ص 149-152.

⁴ عن قيام دولة الرستميين، أنظر كتابنا: الدولة الرُستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. المطبعة العربية، غرداية. ط2، 1994. 68-70-81 وما بعدها.

⁵ عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق بيروت، ط1. 1400هـ/1980م، ص 29.

فالإباضية لا تشن الحرب من قبلها إلا إذا كانت في وضع الدفاع، ثم إذا انتصرت لا تأخذ من غنائم المسلمين إلا السلاح لا غير، أما أموالهم فتحرمها الإباضية تحريماً قاطعاً وأثبت التاريخ واقع هذه الأحكام⁶.

إن الدولة الرستمية التي كانت بين جارتين قويتين - إحداهما قوية عسكرياً وهي الأغالبة، والأخرى قوية نسباً إلى الدوحة النبوية وهي الأدراسة أكثر من كونها قوية عسكرياً، حاولت أن تكون الجار المرن المتزن بين القوتين. ولا نبالغ إذا قلنا إن سياسة الرستميين مع جيرانها⁷ والمجال البربري في المغرب الأوسط الموالي للرستميين، وهو مجال قوي بلاشك، هو الذي حال دون ارتطام الأغالبة بالأدراسة ووصول أحدهما إلى الآخر، ويبدو أن الذي يصل إلى الآخر أولاً، لو وقع، سيكون الأغالبة وليس الأدراسة لأنهم أقوى عسكرياً، وأدهى سياسياً، ويخول لهم فكرهم السياسي التوسع كونهم يستظلون بالخلافة الشرعية، خلافة العباسيين في المشرق التي ترى ويرى أتباعها أن كل الكيانات

⁶ لوأب بن سلام : الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، تحقيق سالم بن يعقوب وشفارتز، دار إقرأ بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ص152، ابن عذاري : البيان 119/1، انشأخي أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد : كتاب السير، طبع لأول مرة عام 1301هـ/1883م طبعة حجرية بقسنطينة، للجزائر. 162، 173، 177 وانظر ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، تح إبراهيم بحاز مع د/ محمد ناصر، المطبوعات الجميلة، الجزائر 1986م، ص44 : يقول لما حارب عبد الوهاب النكار وانتصر عليهم لم يتبعوا مولياً ولا أجهزوا لهم على جريح. أما ابن عذاري المراكشي فتحدث عن الأموال التي نثرها ابن طولون عام 267هـ لما انهزم أمام النفوسيين، فلم يقبل عليها النفوسيون لأنهم يرون تحريم غنيمة المسلمين، انظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تح.. ج.س. كولان، إليني بروفنصال. دار الثقافة، بيروت. 1948، ج1 ص119

⁷ يتحدث محمود إسماعيل عن أغراض توسعية لدى الرستميين وعن إثارة هؤلاء لأمراء القيروان واستفزازهم. والحقيقة أن كل ذلك كان رد فعل وليس فعلاً، ودفاعاً وليس هجوماً، أنظر: الأغالبة سياستهم الخارجية (184-296هـ)، مكتبة وراثة الجامعة. فاس. ط2. 1978،

المستقلة عنها ، إنما هي كيانات غير شرعية يجب إزالتها مباشرة عند أول فرصة تتاح لذلك.

ودولة وضعت هذه الموازين، هي قوية فعلاً، لم تهضمها قوة الشرق للوصول إلى الغرب، ولا قوة الغرب للوصول إلى الشرق، وكانت الحكمة عند الأئمة الرستميّين والعلماء الشراة بالإضافة إلى لجام أحكام المذهب، هي الحاجز والحائل دون الصراع مع هذه أو تلك، إلا نادراً جداً، وحق للدكتور محمود إسماعيل أن يتصور تلك المحاور العسكرية التي كانت تربط القوى في القرن الثاني والثالث للهجرة، " أحدها عباسي أغلبي للحيلولة دون توسع الأدارسة شرقاً ، والآخر أموي أندلسي رستمي مدراري برغواطي للحيلولة دون توسع الأدارسة شمالاً والأغلبة غرباً" ⁸

فلم يكن الرستميون أعداء جيرانهم ، ولكن بعض جيرانهم اختاروا الاعتداء والعداوة على حسن الجوار والصداقة ، فالرستميون كانوا قادرين على قلب أوضاع المغرب لو أرادوا ، ولكن مراقبة الشراة حالت دون ذلك ، كانوا قادرين ودليلنا ثورة أبي يزيد صاحب الحمار بعد الرستميّين مباشرة ، ولكن الرستميّين كانوا يتورعون من سفك دماء المسلمين بالباطل في طموحات سياسية لا نهاية لها ، فالرستميون صادقوا الأمويين في الأندلس ليس لأن مصلحتهم الاقتصادية مرتبطة بهم ، ولكن لأن حسن الجوار من متطلبات الإسلام ، وكذلك الحال مع الأغلبة والأدارسة والمدراريين . وحيث أن الجيران يتربص ، فإن الرستميّين كانوا دوماً على استعداد للمواجهة إذا اقتضت الضرورة ذلك، ولكن تحت إمامة الدفاع وليس الظهور ⁹.

⁸ محمود إسماعيل : الأدارسة (172-375) حقائق جديدة. مكتبة مدبولي، القاهرة. ط 1.

1411هـ/1991م. ص 131

⁹ عن هذه الأنواع من الإمامة عند الإباضية انظر: أبو حفص عمرو بن جميع: مقدمة التوحيد ، شرح الشماخي أبي العباس و الثلاثي أبي سليمان ، الجزائر ، ط2، 1973/1392م ،

إن الأستاذ سعدون عباس، مدفوعاً بحماسة للأداسة، نجده يقرر ويقول " ومن المحقق أن المؤامرات التي أمعن الأداسة في نسجها لم تقابل بأية مبادرة رد فعل من قبل بني رستم . . . إذ لم يكن بوسعهم مجاراة الأداسة في تدبير المكائد وإحداث الشقاق"¹⁰ وهذا صحيح ليس عن ضعف ولكن عن عقيدة وتدين وإباضية . ثم يضيف : " فعزفوا (أي الرستميون) نهائياً عن محاولة استرداد نفوذهم المفقود في الأقاليم الشمالية الساحلية، وهكذا اتسمت علاقات بني رستم السياسية مع الأداسة بطابع العداء، وأسفر الصراع بين الدولتين عن تغلب الأداسة واستكانة الرستميين "¹¹. فلست أدري عن أي تغلب للأداسة يتحدث وعن أي استكانة للرستميين؟ وتاريخ الأداسة لا يملك من الوثائق والنصوص ما يقف حجة لتأكيد هذه الاستنتاجات الاندفاعية التي لا تملك أدنى ظل من الحقيقة وهي إلى العاطفة الجياشة أقرب منها إلى البحث العلمي الرصين.

أما عن الجهاد فرب سائل يسأل لماذا لم يفكر الرستميون في الجهاد؟ أو هل فكر الرستميون في الجهاد لنشر دعوة الإسلام ؟

يبدو أن الوضع السياسي الذي تحدثنا عنه سابقاً، وموقع الدولة بين الأغلبة والأداسة ، حال دون خروج الرستميين إلى الجهاد، وهذا لا يعني أنهم لم ينشروا الإسلام ، لقد كان الإباضية وفي مقدمتهم الرستميون خير رسل للإسلام في شمال إفريقيا¹²، ساهموا بنشر الإسلام بين قبائل البربر التي اعتنقت المذهب

ص7269، عوض خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، شركة المطابع النموذجية، عمان، الأردن، 1982م. ص113.109.

¹⁰ سعدون عباس نصر الله : دولة الأداسة في المغرب العصر الذهبي (172-223هـ/788-835م) دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1408هـ/1987م، ص168

¹¹ نفسه : 168 وانظر صفحة 166، 167

¹² ألفرد بل : الفرق الإسلامية، المرجع السابق، ص147

الإباضي وأصبحت موالية للرستمين ، ويبدو لي أن الرستميين لم يكونوا متطلعين إلى ركوب البحر ، تركوا مجاله للأغالبية في المغرب والأمويين في الأندلس ، ولكنهم كانوا في توجههم ليس نحو البحر شمالا وإنما نحو أفريقيا جنوب الصحراء¹³ جنوبا وهو المجال الوحيد غير المسلم ليست دولة ثغرية، ليس لها حدود وتماس مع دولة كافرة عدو للإسلام، ولذلك نشروا الإسلام سلما بواسطة تجاراتهم، وكان لذلك الإسلام أبلغ الأثر، لأن تلك المناطق لا يزال الإسلام فيها قائما إلى اليوم .

ثم لا ننسى أن الرستميين ساهموا ببعض قادتهم في الأندلس حيث "استعانت الدولة الأموية بعدد من خيرة القادة الرستميين في أعمالهم الحربية، ... استعان الأمير عبدالرحمن الثاني (الأوسط) (238206 هـ/852.821م) بالقائد الرستمي محمد بن سعيد بن رستم في صد الغارات التي دأب المعجوس (النومانديون) على شنّها على شواطئ الأندلس، وتمكن هذا القائد الرستمي من القضاء على هذا الخطر المعجوسي الذي كان يتهدد المسلمين في بلاد الأندلس

14..

إن بروز هذا القائد في مثل هذا العمل الجهادي، دليل على أن الرستميين كانوا يريدون إعلاء كلمة الله بالجهاد، إلا أن موقعهم الجغرافي لا يخوّل لهم ذلك، كما رأينا، وهو ما لم يقبله القائد محمد بن رستم، كما لم يقبل حروب

¹³ إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية ، المرجع السابق ، 387- 390

¹⁴ الحريري : الدولة الرستمية. 216- 217 وانظر ابن القوطية أبو بكر محمد القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس ، تح، عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت، 1957 ، ص83، ابن الأبار أبو عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعي: كتاب الحلة السيرة، تح. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1963.، 372 ، ابن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد م5 - عدد1 2 مدريد 1975، ص 116، هامش3.

الفتن الداخلية فوجد مجاله في الأندلس وأبدع لما تمكن من القضاء على الخطر النورماندي.

إن الرستميين لما قامت دولتهم، ربما كانوا يتطلعون إلى إحياء دولة الراشدين وذلك بإزالة الخلافة العباسية والدول المعاصرة لها، ولم تأت المساعدات المالية من إباضية المشرق إلى تيهرت، إلا لدعم هذه الإمامة الفتية في عهد عبدالرحمن التي تمنى الإباضية امتدادها نحو المشرق لملء الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

إن أحلام الرستميين في المغرب والاباضية في المشرق، كانت أحلاماً فعلاً، لم تقترب يوماً من الأيام إلى الواقع، وذلك لسبب بسيط جداً هو التكوين السكاني لدولة الرستميين. فالبربر هم سكان المغرب، وهم جند الرستميين، لم يستطيعوا أن يذهبوا بهم بعيداً بل حتى قريباً، لأن الرستميين بعد قيام دولتهم أصبحوا يداوون أدواء في سياسة البربر صعبة العلاج، فليس من السهل سياسة البربر ولا حكمهم¹⁵، لذلك بقيت الدولة الرستمية في حدود نشأتها لم تتوسع، ولولا المذهب الإباضي الذي يربط الجميع لانهارت الدولة بسرعة.

ولعل العنصر البربري، بقدر ما كان مثبطاً للذهاب بعيداً عسكرياً، إلا أنه عامل قوي في رد الأغلبة عن المغامرة ضد الرستميين، "فالأغلبة قد مارسوا

¹⁵ يقول هو بكنز، متحدثاً عن قدرة الرستميين في سياسة البربر: "ويخامر المرء شعور بأنه لا بد وأنهم (الأغلبة) كانوا يغبطون الأدارسة والرستميين الذين كان يبدو أنهم يقومون بهذه المهمة بنجاح لا بأس به. أنظر هو بكنز ج ف ب: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى. تر. أمين توفيق الطيبي. الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1980. ص 137

138، وانظر الأستاذ عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، نشر مكتبة العرب، تونس، 1344هـ ص 182، وانظر كذلك طبعة دار الغرب الإسلامي بمراجعة بالاشتراك مع د/ أبو القاسم سعد الله، د/ناصر الدين سعيدوني، د/محمد البشير شني، إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، المرجع السابق، ص 132.

البربر في حروبهم ضدهم فأدركوا منها ألا طاقة لهم بخضد شوكتهم. لهذا انصرفوا عن محاربتهم وركنوا إلى إصلاح شؤونهم في الداخل بدل أن يضيّعوا مجهودهم في الخارج بدون جدوى، ثم صار اهتمامهم يتوجه إلى البحر ويخضعون بعض الجهات¹⁶، ويعزو فوندرهيدن اتباع الأغلبة السياسية البحرية والاتجاه إلى فتح صقلية، إلى أن الأغلبة لم يستطيعوا التقدم شرقاً ولا غرباً، أي أنهم لم يستطيعوا السيطرة على برقة ولا على كامل المغرب¹⁷.

لقد كان للرستميين جيش من قبيل جيش الأمة المقاتلة، تماماً مثلما كان الجيش عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، الأمة كلها مدعوة للقتال إذا حزبها أمره أو هدها عدو، ويبدو لي أن الجيش الرستمي تراوح بين الضخامة والضعف تبعاً لقوة الإمام وضعفه من جهه، وقوة المذهب الاباضي وانشقاقاته من جهة أخرى، وقوة العدو ومصير المعركة من جهة ثالثة.

وهو أن الجيش الرستمي، قوامه هؤلاء البربر شديداً المراس من جهة، وكثيرو الشعب والانشقاق من جهة أخرى، لذلك لم يعطوا الرستميين قوة عسكرية فعلية، ومن هنا جاءت تلك البهمة التي غطت على وجود الجيش عند الرستميين.

لا أرى مبرراً أبداً للقول بأن الرستميين لم يكن لهم جيش من باب تقزيم دورهم، ودورهم العسكري كما يثبت كبير جداً في ضبط التوازنات في بلاد المغرب الإسلامي، ثم إنه لو لم يكن لهم جيش فأنى يكون لهم قائد من طراز محمد بن رستم، يكون على يديه القضاء على النورمانديين في الأندلس؟

¹⁶ ابن تاويت : دولة الرستميين. المرجع السابق، ص 117

¹⁷ تقي عارف الدوري : صقلية وعلاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورماندي، دار الرشيد بغداد، 1980 م، ص 34.

وأنى يكون لهم ذلك الازدهار الاقتصادي والانفتاح التجاري والأمن العام، لو لم يكن لهم جيش يوفر ذلك الأمن في المدن وفي المسالك التجارية ويحميها؟

يتساءل الأستاذ شيخ بكري، هل كان للرستميين جيش منظم دائم؟ يجيب لا شيء يشير إلى ذلك، ويضيف، نعم هناك إشارات طفيفة توحى بوجود فرقة عسكرية أو حراسة عسكرية خاصة ومهمة، ولكن دولة بدون جيش خاصة وأنها محاطة بالأعداء يبدو رأيا غير مقبول، رغم الفكر الهادي للأئمة وغياب التطلعات التوسعية لجيرانهم، فإننا نفهم خطأ تيهرت بدون جنود، فتيهرت أو المعسكر كما يسمونها تبدو في الحفريات ذات موقع قوي، فنحن لا نستطيع أن نعتقد أن الرستميين الذين وقروا للأمويين في الأندلس فرقا من المرتزقة بل حتى من القادة العسكريين الكبار عاشوا بدون قوة عسكرية، فربما لم يكن للرستميين جيش منظم في البداية ، ولكن ابتداء من عهد الإمام الثاني عبد الوهاب ، أصبحوا يملكونه ، وإن بدا لنا صغيرا ومن دون أن يكون له دور بارز.¹⁸

ويواصل الأستاذ شيخ بكري استنتاجاته قائلا ، إن مملكة إياضية قامت من أجل " لا إله إلا الله " نظريا، لا وجود لجيش دائم لها، لكن كل أعضاء المذهب رغم هدوئهم وعدم عدوانيتهم فإنهم ينقلبون إلى جنود أشاوس ومحاربين من الطراز الأول بمجرد أن تصبح حياة المملكة في خطر يهددها ، وهذا ما جعل في الوقت ذاته قوة وضعف هذا الجيش ،¹⁹

نختم فنقول، لقد كان للرستميين جيش فعلا ، عرف النشأة والقوة ثم عرف الذبول والزوال بزوال الإمامة الرستمية ، ولعلنا نتناوله بالتفصيل في بحث قادم

¹⁸ B.Chik: Kharijisme, op. Cit. 73-75

¹⁹ ibid. 73